

يوسف وإخوته

تحلّق الإخوة حول صخرة مستويّ سطحها، وهي التي اعتادوا أن يتدارسوا حولها أمورهم عند مرعى خارج سور مدينة شكيم؛ أسفل سفح جبلٍ يُدعى جزيم، كان للتو قد مضى عنهم أبوهم عائداً إلى المنزل بعد إذ أتى لهم بصُرّة يحمل فيها طعام الغداء، وهو ممسكٌ بيدِ يوسف وبأخرى الصغير بنيامين، لم تكن لهم رغبة في تناول الطعام؛ الحنق سدّ شهيتهم، فقد كان مشهد أبيهم مع الولدين كافياً ليذكرهم بالانكران والجحود الذي بدأ يعاملهم به أبوهم منذ خرج يوسف إلى الدنيا، سبعة عشر عامًا، وفي كل عام كان يزداد يعقوب تعلّقاً بيوسف.

ضرب شمعون في غضبٍ بعصاه على الصخرة، وقال: لن أستطيع تحمل هذه الحال أكثر، إن شأن أبينا مع يوسف أصبح مما لا أقدر على التأقلم معه، ألم تلاحظوا كيف ينظر أبونا إليّ ولاوي قبل قليل؟ إنه غضبان منا لأن لاوي نهرَ يوسف بالأمس ليؤدبه، لقد رفع أبونا العصا في وجه لاوي وكاد يشج رأسه لولا أن تدخّلتُ في اللحظة المناسبة. يهز لاوي رأسه خلف كتف شمعون قائلاً: لا تذكّرني يا أخي، فعلاً هذه الحال لم تعد تُحتمل، حتى أن عقلي لا يهدأ عن التفكير فيما سنفعل عند اللحظة التي سيتخلى عنا فيها أبونا من أجل يوسف. يصيح روبيل وهو واقف على مقربة منهم يهش الغنم: ولكن لا تنسيا أنه غضبان منكما أنتما الاثنان بالذات منذ حادثة بني حمور الحوي، أما كان لكما أن تُبقيا على نصف رجال القبيلة على الأقل؟ أكان من اللازم أن تُبيدا رجالها عن بكرة أبيهم، وتسببا نساءها وأطفالها وتسرقا المدينة؟ نظر شمعون إلى روبيل بعينين ملتهبتين وقال له: لا تثريب عليك؛ فأنت لم ترَ ذاك الأمير الخسيس وهو يتحرش بأختنا دينة، أختنا المسكينة -يغطي وجهه بيده-، لم نستطع تحمل المشهد أنا ولاوي، فكرنا بطريقة للانتقام، فشرطنا على الأمير أنه إن أراد أن يتزوج أختنا أن يختتن هو ورجال قبيلته جميعهم، فأقامت المدينة حفلة ختان، تخيل! ولما فعلوا وكانوا غارقين بأوجاعهم أتينا عليهم. يضحك أخوهم دان ويضرب سهماً في الهواء ويقول: حسناً ما فعلتما. ينضم إليه شقيقه نفتالي: أجل، حتى يُعلم أن خلف أختنا ظهران.

وبينما باقي الإخوة يتناقشون في الحادثة، كان أصغر اثنين في الحلقة يشجر زبالون يتهاसान سرّاً، لكزهما شمعون بعصاه قائلاً: ماذا تخفيان سرّاً أنتما الاثنان؟ تسمر الشقيقان، فتح زبالون عيناه عن آخرهما وتقدم برأسه حتى منتصف الحلقة وقال: اسمعوا، أنا ويشجر علمنا أمراً خطيراً، إنه يهمننا جميعاً. يرى روبيل حماسة إخوته من بعيد فيعجّل من خطوه وينضم للحلقة: قلّ بسرعة ما عندك. يزدرد زبالون ريقه ويُكمل: كنتُ ويشجر ساهرين حتى الفجر، فسمعنا صوت قرقرّة عند دارنا، ولما أرهفنا السمع، فإذا هما أبونا ويوسف، كان أبونا قد قام من نومه ليأتي بالماء ليوسف، ويوسف يشرب على عجلٍ شرباً

خائف، وبصوت راجف... صاح فيه شمعون: وهل تظنه وقتًا مناسبًا لتصف لنا الحال التي كانوا عليها تفصيلًا! قل لنا ماذا سمعنا؟ قال أخوهم يهوذا الذي كان يجلس على مقربة منهم ويضرب بالحصوات: متى ستتوبان عن هذا الفعل المُشين؟ ألم أنهكما غير مرة ألا تتجسسا على أحد؟ تابع زبالون: لقد كان حلمًا مُهييًّا، أجل، هذا ما قال يوسف، وكان أبونا يهدئ من روعه ويُدثِّره، ولكنه لم يُكف عن ترديد ذلك الحلم مرارًا وتكرارًا (أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) عندما قال زبالون هذا، مرّت لحظة على الإخوة لو مرّ عليهم أحد لظنهم حُشب مسدّدة، وأكمل يشجر: وإن أبانا قد نهى يوسف عن أن يقصص رؤياه علينا (يهز رأسه مؤكّدًا). يمسك جاد بذقنه ويقول وعينان سارحتين بعيدًا: هذا ما كانت أمنا زلفة تحذرني منه أنا وشقيقي أشير، لقد حان الوقت يا إختوتي، إن لم نتخلص من يوسف الآن فإنه سيكون غدًا فينا ذو شأن فيصعب علينا التصرف معه. ارتعدت فرائص شمعون، سلّ سيفه من غمده وقال: أنا أقتله. قال لاوي: لا داعي للسيف يا أخي، يضرب بعصاه الحجر- هذه العصا تكفي للقضاء عليه، فهو صغير. قال يهوذا: اهدؤوا، لا بد أن نجد حلًّا.

واحتدّ النقاش بين الإخوة، كانت أعينهم قد احتدمت من الغضب، وأفواههم تزد، وصدورهم تعلو وتهبط؛ كأنها بطن جندي مجروح وسط ساحة المعركة، والصخرة المتحلقين حولها تكاد تستوي مع الأرض! أنا أضربه بالسيف وأنتم تتخلصون من جثته. قال شمعون. فهز بقية الإخوة رؤوسهم موافقين، إلا روبيل، فقال شمعون هازئًا: ألسنت موافقًا! إذن انتظر حتى يستولي يوسف على مواطئ قدميك لا مقعدك فقط - وهنا يُذكّر شمعون روبيل بالمكانة التي احتلها يوسف عند أبيهم، وهي ما لم يصل إليها روبيل على الرغم من أنه الولد البكر- ردّ روبيل مديرًا وجهه: إن هذه الحال لأهون علي من أن أحمل ذنب قتل يوسف في عنقي طول عمري. سكت قليلاً ثم أردف: إن كنتم عازمين على فعل ما تقولون فلا تقتلوا يوسف، وألقوه في الجب، حتى إذا ما مر مسافرون لدى الجب التقطوا يوسف واسترحتم منه. صمت الإخوة وتبادلوا النظرات يقلبون قول روبيل، ففي الحقيقة سيّان عندهم أُقتل يوسف أو ضاع أو حُرق، فالمهم هو أن يتخلصوا منه فيخلوا لهم وجه أبيهم، -وكان خلو الوجوه من أحبابها يستلزم خلو القلوب معها!- بدى شمعون أنه اقتنع بفكرة روبيل، فسأله: وإن وشى بنا يوسف؟ قال روبيل: لن يفتح فمه، سنهدده بالقتل. قال لاوي: وإن تعرّف إليه أحد؟ قال روبيل: سنرميه في جب بعيد عن المدينة. فقال دان: وإن أحسّ أبونا بالأمر؟ قال روبيل: سنحرص على ألا يكون.

وبعد لأيّ، استطاع الإخوة إقناع أبيهم أن يأخذوا يوسف ليتمشى معهم عند المرعى قبل غروب الشمس. ولكنني لا أقدر على مفارقتة حتى المغيب. قال يعقوب بوجه حبيبٍ يودّع حبيبه إلى الأبد. في هذه الأثناء؛ كان يوسف قد استهام فكرة أن يأخذه إخوته ليلعب معهم في المرعى فسبقهم هو ويشجر وزبالون، صاح

له يعقوب فعاد يوسف مهرولاً، فضمه يعقوب إلى صدره وقبله وأخذ يدعو له ويوصيه وإخوته، ثم استدرك قائلاً: أفلا تأخذون بنيامين لينشرح صدره مثل شقيقه؟ امتعض الإخوة، فذهاب بنيامين معهم سيفسد عليهم الخطة، ولو فكروا بالقضاء عليه مع يوسف فسينكشف أمرهم. تقدّم يهوذا متضحاً يحك أنفه، حمل بنيامين مداعباً إياه: قطعاً لن نقدر على الذهاب من دونه.

مشى الإخوة ومعهم يوسف يحادثونه تارة ويلكزونه أخرى ويسابقونه مرة ويمازحونه بما يمتازح الإخوة فيما بينهم، وعين يعقوب تتبعهم، فلما غابوا عن عينيه، امتدت يدان فأمسكتا يوسف من قفاه، وجرتاه كما تُجر الذبيحة إلى المذبحة. أحكم يهوذا غلق فم بنيامين وهو بين ذراعيه حتى لا يُسمع صياحه، أما يوسف فكان اصطدام الصخور المتتالي بركبتيه يفقده أنفاسه ويكاد يغيب عن وعيه من الألم، يصرخ شمعون في وجه يوسف بينما إحدى يديه ممسكة قفاه: نحن نسجد لك! هه، أكنتَ تظن أن هذا سيحدث حقاً؟ ما قولك الآن وأنت تمشي بيننا راعباً؟ ها؟ ويضحك، ويضحك من خلفه الإخوة.

ظل الإخوة يمشون على هذه الحال وهم يؤذون يوسف، إما بالشتم وإما بالضرب، حتى إذ صلوا إلى الجُب؛ تقدموا بيوسف عند فوّهته. تسمّرتا عينا يوسف محدقاً في الجُب، ولم ينبس ببنت شفة. في تلك اللحظة تذكر أمه راحيل، عندما كانت تخلق له حكايات عن الآبار -إذ كانت تلتقي يعقوب عند بئر لهم- رغم أنه فارقتها في سن صغيرة، فقد ماتت إثر تعب أصابها بعد ولادتها بنيامين، لكنه تذكرها في تلك اللحظة، ولمعت ذاكرته بتفاصيل ملامحها الجميلة. التفت إلى شمعون غير مصدقٍ ما هم ناوين على الإقدام عليه، فأدخل شمعون رأسه في الجُب، وقال: ما رأيك في الإقامة هنا الليلة؟ لا تقلق، فستجد في غور هذا الجُب ما يؤنسك. -وما فتئ يضحك-. رفعا شمعون ولاوي يوسف من ياقة قميصه، فصرخ فيهم روبيل الذي كان بعيداً عنهم يحلق ببصره إلى المنطقة: انزعوا عنه قميصه وارموه إلي.

كان يمسك بيده ثعباناً من عنقه، قطع رأس الثعبان فسال الدم وبلل به قميص يوسف، وقد نسي أن يشق القميص حتى تكتمل خطته التي شرع بتنفيذها، والتي أوحى بها إليه أبوه -من غير قصد- حين حذرهم من أن يأكل الذئب يوسف. تحلق باقي الإخوة حول فوّهة الجُب، رفعا شمعون ولاوي يوسف فربطاه دان وفتالي بحبلٍ حول خصره وأوثقا معصميه، ثم أمسكا بطرف الحبل، وهمّ الأولان برمييه في الجُب، لكن يوسف تعلق بهما، فتعالت الشتائم وامتدت أيدي باقي الإخوة بالضرب، فكان كلما التجأ إلى واحد منهم؛ لطمه، وكلما توسل إلى أحدهم؛ بصق في وجهه، حتى تخلت عنه كل أيديهم، فالتجأ إلى حافات الجُب يتشبث بها، فرفعوا عصيهم وتسبقوا على ضرب أصابعه، فأصابه واحد منهم فهوى، ثم أسرع الأخوان يشدان الحبل، ولما قدّرا أنه لم تتبقي إلا مسافة قصيرة حتى القاع؛ قطعاه، فسقط يوسف في غيابة الجُب.